

الرافعي

وبرقت العيون ، واختلجت الشفاه ، واهتزت الرؤوس ،
وانبعث صوت السامرين بحوقل ويسترجع في همس خافت ، وقال
قائلهم : « يرحمه الله ! لقد كان ... ! »

* * *

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل وفاء العربية للراجلين من أدبائها : يتهاوون من
الندوة إلى بطن الوادي فرداً فرداً ، وإخوانهم على الطريق ينظرون
إليهم في بلدة وصمت ! لا تشيعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين
باكبة ، ولا يذكرهم منهم إنسان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنية وأمله ، هو خضمهم
من الطعام والشراب والثياب وتكاليف الحياة ، وفيه العيوض
كل العيوض من عائلهم الذي طواه الموت بين الصفائح والتراب !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا هو الخلود الذي ضمهته العربية أن يموت من أدبائها
وهو في ميدان الجهاد يكافح الفقر والمرض وشئون العيال ، وببذل
نفسه لينشيء أدباً يسمو بضمير الأمة ، ويشرع لها طريقاً تسير
فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء ، وكل ما يملكه
أدباء العربية من أساليب المواساة ، وكل ما يقدر عليه ناطق بيبين ،
وصديق يتعجب ، وحبيب يشعر أن عليه حقاً لمن يموت من
أهل البيان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ماله صدى ! وتراث ليس فيه غناء ، وطعام لا يهنأ
ولا يمرأ ، وخلود لا يدوم إلى غد ، وعزاء لا يخفف دمة
ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموت أباه وسعادة
دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلّوا عنكم أيها الأدباء الكبار ، وأيها الشمرء العظام ،
وأيها الخطباء المصانع ؛ خلّوا عنكم غناءها ، سيرحمه الله وإن لم
تقولوها ؛ سيرحمه بما جاهد ، وبما بذل ، وبما غنى ، وبما تحمّل
من جهد التضحية ومشقة الحرمان ؛ وسيرحمه ثانية بما لقي ، من

بعد عام

للاستاذ محمد سعيد العريان

—>>><<<—

في صباح الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ نمتي المرحوم مصطفى
صادق الرافعي إلى أدباء العربية ، فجأة وبغير إنذار ؛ فسكت القاري
وتلفت السامع ، وتنشئ السامرين من أهل الأدب سكون
ووحشة وانقباض

وطالت فترة الصمت ، والسامرون في غشيتهم لا ينطقون ،
إلا نظرات شاردة ، وخواطر تصطرع وتعوج ، وذكريات تنبعث
محرقة لاذعة ، تذكر بما كان وتنبّه إلى ما ينبغي أن يكون ...
وهمس هامس : « يرحمه الله ! لقد كان رجلاً للدين وللعربية
مهبّات أن تجد بديلاً منه أو يتقضى زمان من عمر التاريخ ! »
ثم عاد الصمت ، وعاد السكون ، إلا النظرات الشاردة ،
والخواطر المائجة ، والذكريات والأمانى ...

وهتف هاتف في جلال الصمت وفي وحشة السكون :
« إن للفقيد حقاً على اللغة ، وحقاً على المسلمين ، لا يجرى فيهما
أن تقول : يرحمه الله ! »

وتدانت الرؤوس ، وتجاوبت النظرات ، واثالت الأفكار ،
وتزاحمت الأمانى ؛ ثم لم يلبث أن عاد الصمت ، وعم السكون !
ثم عاد القاري يقرأ ، وأنصت السامع يسمع ، وانتحي اثنان
يداولان الرأي في شأن من شئون الأدب ، وتماسك اثنان
يفاضلان بين الجديد والقديم ؛ وغامت في سماء الندى غائمة ،
وانعقدت على رؤوس السامرين عجاوبة ، وضج المكان كسالف
عهده ، واختلطت الأصوات فإ يبين صوت من صوت ، واشتغل
كل بما هو فيه ...

وصاح صائح في نبرة البائس المحزون : « ويحكم يا بني عدنان !
لقد شغلتم دنياكم عن الوفاء ، وتشتتكم الحياة عن ذكر الموت !
لقد كان هنا إنسان منكم ، وإنه لأوفىكم صوتاً ، وأبلغكم بياناً ،
وأبعدكم غلبة ومدى ؛ فهلا ذكره منكم إنسان ... »

المعقوق وكان بَرًّا ، وبما اتى من القدر وكان وفيًّا ، وبما قول
من إنكار الجليل وكان من أهل الجليل ؛ وسيرجه بدموع هؤلاء
اليتامى ، وبأفان هؤلاء الأيتامى ، وبدعوات كثير من أهل
الإيمان وقوا له ما وسعهم الوفاء !

مضى عام منذ مات الرافعى ، فهل سأل أحد : كم خلف
وكم ترك ؟

سأحدثكم وإن لم تطلبوها إلى

أما المال فلا سيد ولا لبد ، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة
للولد ، وأما المبال ... وأحزنا لو كان يجدى الحزن !

هذا « سائى » كبيرهم فى بعثة الجامعة بأمرىكا ما يزال بينه
وبين الناية خطوة ؛ وهذه « سمدي » الصغيرة تلثغ فى الرأه
وتضم شفتيها على الباء ؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم « محمد »
الله لهذا الشاب المائل ؛ لم يكده ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع
سنتين فى فرنسا لدراسة الطب ، حتى كان عليه عبء الأسرة كله ،
فكانما كان هو فى تلك الغربة وديمة إلى أجل ، وذخيرة إلى
ميماد ؛ وعاجلته تبعات الحياة وما يزال فى باكر الشباب ؛
والحكومة .. ؟ خلّى عنك يا وزارة الحفانية ، خلّى عنك
يا وزارة المعارف ، خلّى عنك يا وزير المالية ... الله أكرم !

لقد تصرّم من عمر الرافعى فى خدمة الحكومة ثمان وثلاثون
سنة ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ؛ فأى مكافأة وأى جزاء ؟
بضعة عشر جنياً فى كل شهر ، تأبى الحكومة إلا أن يكون لها
فيها ميراث ...

إنه الرافعى ، إنه الرجل الذى كان اسمه فى مقدمة الأسماء
المصرية التى تؤكد زعامة مصر للأمة العربية ، وترفع اسمها وتبني
مجدها الممتاز ، وتسند طرائقها التى يحتفها الأدباء فى العالم العربى .
إنه هو ... ولكنها هى مصر ... !

وكتب رئيس الرافعى فى وزارة الحفانية كتاباً غداة متعاه
إلى وزارة المالية ، يصف لها من حال الرافعى ومن خبره ،
ويقترح ... يقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من الميراث
فى (معاش) الرافعى لأولاده ... ولكن وزير المالية بأبى ...
ولكن الله أكرم ... !

« رحمه الله ! رحمه الله ! »

ذلك كان جواب الحكومة المصرية ... !

لقد مضى عام ، فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعى ؟
وهل ذكرت الأمة والحكومة ما عليهما من واجب الوفاء للرافعى ؟
لقد نداهى الأدباء إلى ميماد يحتفلون فيه بتأبين الرافعى ، وجاء
الميماد وتختلف المدعو والداعى ؛ وترادف ميماد وميماد وميماد ،
ومضى عام ، وعلى مكتب كل أديب دعوة لتأبين الرافعى ، وفى ذيل
كل دعوة جواب المدعو بخطه أو بلسانه : « رحمه الله ! رحمه الله ! »
وعند دكاكين الوراقين أسئلة عن كتب الرافعى ، ولكن
السوق ليس فيه كتاب من كتب الرافعى ؛ وقال قائل : « أعيديها
طبع الديوان ، أعيديها طبع إنجاز القرآن ، أعيديها .. أعيديها .. »
وقال الطابع والناشر والوراق : « رحمه الله ! رحمه الله ! »
وعلى مكتب الرافعى كتب لم تطبع ، وقصاصات لم ترتب ،
وثمرة عقل خلّاق كان يجهد جهده ليضيف كل يوم إلى العربية
ثروة جديدة وفكراً جديداً . وقلنا : « يا وزارة المعارف ، هذه
كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها العث والفيران فيضيع على
العربية كنز مالها منه عوض ! » ولكن وزارة المعارف فى أحلامها
الهنئية لا تسمع ولا تجيب ، إلا همساً فى أمثال أنفاس التانم تردّد
قول الناس : « رحمه الله ! رحمه الله ! »

وفى الأمة مع ذلك أدباء ، وفى الأمة كتاب وشعراء ، وفى
الأمة ناشئة غافلة ما تزال ترجو الخلود فى الأدب ...
وفى الأمة عقول ناجحة فى أجسام مهزولة من الفقر والجوع ؛
وفى الأمة رموس ممتلئة على أناسى تضطرب كل مضطرب للبحث
عن القوت

وفى الأمة ... وفى الأمة رموس فارغة على أجسام تكاد
تتمزق شبعاً ورثاً ؛ وفى الأمة ... وفى الأمة قلوب خاوية فى أناسى
تتمرغ بين وسائد الدمتس وحشايا الحرير ...

وفى الأمة ... وفى الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشاً :
« لماذا ... لماذا لا نجد فى الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين
كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ... ؟ »

يرحمك الله يا مصطفى ... ! بل يرحمك الله أيتها الأمة !
« شبرا » محمد سعيد العربا